

## الهجرة إيمان وتنظيم

### ١ - عروبة الهجرة

كانت هجرة الصحابة رضوان الله عليهم إلى الحبشة سابقة للهجرة العامة إلى المدينة مع اختلاف في خصائص كل من الهجرتين .  
وقد سبق هذه الهجرات إيذاء شديد لحق المسلمين تحمله بإيمان راسخ ، وتنوع طرق التهديد والإيذاء : كان الكفار يحاربون التاجر المسلم في تجارته ، وإذا كان الرجل ضعيفاً عدواً عليه بالضرب والتجويع والإعطاش حتى ما يقدر أن يستوى جالساً من شدة الضرب . ويروى البخاري أن خباباً (رضي الله عنه) قال : « أتيت النبي عليه السلام وهو متوسد ببردة وهو في ظل الكعبة ، وقد لقينا من المشركين شدة ، فقلت ألا تدعو الله ؟ فقعد وهو محمر الوجه ، فقال : قد كان من كان من قبلكم يمشط بأشواط الحديد ما دون عظامه من لحم وعصب ، ما يصرفه ذلك عن دينه ؛ ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنتين ما يصرفه ذلك عن دينه ، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله عز وجل ، والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون » .

وزاد الإيذاء ، والرسول لا يقدر على أن يمنع أصحابه مما هم فيه من البلاء ، فقال لهم : لو خرجتم إلى أرض الحبشة ، فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد ، وهي أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه .  
فهاجر الصحابة إليها هجرتين .

والذي يستوقف النظر في هذا الحديث الشريف أن الرسول دعا أصحابه إلى الهجرة إلى الحبشة ، ولكنه جعلها هجرة مؤقتة بدليل قوله « حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه » . وهي بهذا لم تكن « هجرة استقرار » لنشر الإسلام ، واتخاذ الحبشة منطلقاً للدين الجديد ؛ وإنما كانت « هجرة إيواء » حتى يستطيع الإسلام أن يجد له قاعدة في الجزيرة العربية نفسها .

يدل على هذا أن النبي عليه السلام بعد وفاة خديجة وعمه أبي طالب ، وما أصابه وأصحابه من إرهاب وإرهاب وعنت ، وبعد أن انتهى ما فرضته قريش على المسلمين من حصار اقتصادي واجتماعي في شعب بني هاشم ، خرج إلى ثقيف - في الطائف - يطلب نصرتها ، فردته رداً غير جميل ، وأغرقت به عبيدها وسفهاءها يسبونه ويضحون به ، ويرضخونه بالحجارة حتى أدموه ، وخلص منهم ورجلاه تسيلان دماً . . ثم أخذ يعرض نفسه على أحياء العرب ، في موسم الحج ، ليؤمنوا بالله ويصدقوا بالرسول ويمنعوه حتى يبين ما بعثه به الله . وتحمل النبي عليه السلام في هذه المرحلة أذى بليغاً ، ولكنه مع هذا كله كان لا يهن ولا يني عن عرض نفسه على القبائل .

وكتب السيرة مليئة بالحوار الذي كان يدور حول الشروط التي تشرطها القبائل لنصرة النبي . كان منهم من يريد أن يكون له الأمر بعد الانتصار ، ويرون الدين صفقة . فما يكون من النبي إلا أن يقول : الأمر لله يضعه حيث يشاء . ومنهم من تشكك في الأمر قائلاً : قوم الرجل أعلم به ، أترون أن رجلاً يصلحنا ، وقد أفسد قومه ولفظوه ؟

فهناك إذن إصرار من النبي عليه السلام على إبلاغ دعوته وعرضها على القبائل العربية أولاً ، حتى يجد القوم الذين يقبلون أن تكون أرضهم منطلقاً للإسلام ، ورجاهم الرعيل الصادق الذي يحمل مع النبي أمانة هذا الدين .

ويعر الله هذا الأمر لرسوله حين استجاب الخزرج له عند العقبة في موسم الحج قائلين : إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة ونشر ما بينهم ، وعسى أن يجمعهم الله بك ، فسندم عليهم فندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك ، ثم انصرفوا عائدين إلى يثرب وقد آمنوا وصدقوا .  
 بهذا استطاع الإسلام أن يجد « قاعدة عربية » لينتشر منها ، وكانت الهجرة داخلية في الجزيرة العربية ، ومن هنا تميزت تميزاً واضحاً عن الهجرة الخارجية إلى الحبشة : تميزت في المكان كما تميزت في الهدف .

## ٢ - بين الإيواء والانطلاق

ولقد حدد الرسول عليه السلام الهدف من الهجرة في بيعة العقبة الثانية حين خاطب الأنصار قائلًا : « أسألكم لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأسألكم لِنفسي وأصحابي أن تؤوونا وتنصرونا وتمنعونا مما تمنعون منه أنفسكم » ، وبين الرسول منزلة دار الهجرة حين سأله الأنصار قائلين : « إن بيننا وبين الرجال "يعنون اليهود" حبالا نحن قاطعوها ، فهل عسيت إن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله ، أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ » ؛ فقال الرسول عليه السلام : « بل الدم الدم والهدم الهدم . أنا منكم وأنتم مني . أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم » ، ويقصد بذلك أن من طلب دمكم فقد طلب دمي ، ومن أهدر دمكم فقد أهدر دمي لاستحكام الألفة بيننا . وهو معنى حديثه الآخر « المحيا محياكم والممات مماتكم » (١) .

بهذا يتضح الفرق الكبير بين اتخاذ المدينة قاعدة للإسلام ، وبين الهجرة إلى الحبشة التي كانت محددة بهدف موقوت ، حتى يجعل الله

(١) ابن الاثير : النهاية في غريب الحديث والأثر ٤ : ٢٤٢ - ٢٤٣ .

لكم فرجاً مما أنتم فيه . والذي يهمننا تسجيله الآن أن الحبشة مع وقوعها في شرق إفريقية ، وقربها من مهد الإسلام وغناها النسبي ، لم تكن في عصورها التاريخية منطقتة انطلاقاً في إفريقية ، وإنما كانت - في الغالب - منطقة « إيواء » وعزلة . ولم تستطع أن تسيطر حتى على السهول الساحلية التي تقع إلى شرقها ، أو تتوسع في الغرب والشرق الغربي . أما الجنوب فلم يكن هناك ما يدفع الأحباش إلى التوسع فيه ، لوجود نطاق جاف نسبياً ، تليه منطقة هضبة شرق إفريقية المرتفعة . ويعلق سير وليام ميور على احتمال هجرة الرسول عليه السلام إلى الحبشة بقوله : « لو لم يتوافر للإسلام مهاجر في المدينة لربما هاجر النبي إلى الحبشة . وهنا كان من المنتظر أن ينزوي الإسلام ، ويتحول إلى مذهب مسيحي قصير العمر مآله الانقراض » (١) . وليس من الممكن أن نحكم على مصير الإسلام لو لجأ إلى الحبشة بنفسه . ولكن لو تخيلنا هذا لتساقبت عدة أسئلة إلى الذهن : من يحفظ القرآن العربي ؟ وما عدد هؤلاء الحفظة ؟ وما مصير الدين ، بلغته العربية ، في البيئة الحبشية في هذه المرحلة الأولى من مراحل نموه ؟ وإلى أي مدى سيسمح أهل البلاد لهذا الدين الجديد اللاجئ أن ينمو ؟ وما موقف الرومان من الحبشة ، حين يعلمون أن فيها ديناً عالمي الانتشار ، أوى إليها ؟ وهل يستطيع الإسلام أن يتخذ من الحبشة - وقتئذ - وهي مناطق مزقتها الأنهار إلى بيئات منعزلة ، قاعدة متماسكة ؟

أليس من الأقرب إلى الذهن أن يتابع الإسلام نموه في مهده الأول الذي اختاره له الله ، وينزل القرآن العربي ، في أرض العرب ، ثم يخرج دعائه بعد هذا ، ليدخلوا إفريقية من أوسع أبوابها وأقواها ، ويتخذوا من مصر قاعدة انطلاق في إفريقية ؟

Muir W. : The Life of Mohammed, P.70, Edinburgh. (١)

ليس من الممكن أن نحكم على ما لم يحدث لسبب قريب ،  
هو أنه لم يحدث . ولا نريد أن نجرح بنا الحيان لنصور تاريخاً ونسبى عليه  
نتائج . والذي يعيننا ويستوقف أنظارنا ، أن النبي بقي في هذه البيئة العربية  
لتكون قاعدة الإسلام ، وأن الهجرة إذا كانت من مكة إلى المدينة فقد  
كانت داخل الجزيرة العربية .

### ٣ - نماذج مؤمنة

ولم تكن اهجرة يسيرة على نفوسهم . فمكة قريبة من قلوبهم حبيبة  
إليها .. أحبوا وهم فيها ، وتغنوا بحبها وحنوا إليها وهم في المدينة (١) .  
ولنستمع إلى حديث السيدة عائشة رضي الله عنها : « لولا الهجرة  
لكنت مكة . فإني لم أر السماء بمكان أقرب إلى الأرض منها بمكة .  
ولم يطمئن قلبي ببلد قط ما اطمأن بمكة . ولم أر التمر بمكان أحسن  
منه بمكة » .

وقول ابن أم مكتوم : وهو أخذ بزمام ناقة رسول الله صلى الله عليه  
وسلم وهو يطوف بالبيت العتيق :

يا حبذا مكة من وادي

أرض بها أهلي وعوادي

أرض بها ترسيخ أوتادي

أرض بها أمشي بلا هادي

(١) انظر مادة مكة بمعجم البلدان لياقوت ٥ : ١٨١-١٨٨ ط بيروت

بل إن هذا الحنين ليبلغ مداه في نفس الرسول عليه السلام وهو خارج منها ، وبتلفت إليها بعينه وقلبه وبتأجيبها وهو في طريق الهجرة : « والله إنى لأخرج منك ، وإنى لأعلم أنك أحب بلاد الله إلى الله ، وأكرمها على الله تعالى ، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت » (١) .

ويحفظ لنا تاريخنا الإسلامى روائع من قوم رغبوا فيما عند الله فلم تفتهم زهرة الدنيا ، وجعلوا مادة الحياة قريبة إلى ربهم . .

فصهيب الرومى حين أراد الهجرة من مكة إلى المدينة ، قال له كفار قريش : « أتيتنا صعلوكاً حقيراً فكثرت مالك وبلغت الذى بلغت ، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك ! والله لا يكون ذلك . . » .

فقال لهم صهيب : « أرايتم إن جعلت لكم مالى أتخلون سبيلى ؟ » . قالوا : « نعم » .

قال : « فإنى قد جعلت لكم مالى . . » . فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « ربح صهيب ،

ربح صهيب » .  
والتصمة صورة كريمة من الإيمان : موقف وقفه صهيب رضى الله

عنه ليختار بين المال الذى جمعه من كده وعرق جبينه ، وبين الخروج بدينه إلى المدينة ، فاختار الدين وترك المال ، ليذهب ويساهم فى إنشاء المجتمع الحديد .

وتعطينا أم سلمة رضى الله عنها نموذجاً كان الصراع فيه بين الإيمان والعاطفة ، لا بين الإيمان والمال ، كما رأينا فى قصة صهيب . فعندما عزم أبو سلمة على الخروج إلى المدينة رحل لها بغيره وحملها عليه ، وجعل معها ابناً سلمة فى حجرها ، ثم خرج يقود بها بغيره . فما رآته

(١) ابن سيد الناس : عيون الأثر ١ : ١٨١ . ط . القدس ، القاهرة .

رجال من بني المغيرة حتى قاموا إليه فقالوا: هذه نفسك غلبتنا عليها ، أرايت صاحبتنا هذه علام نتركك تسير بها في البلاد ؟

قالت أم سلمة : فترعوا خطام البعير من يده وأخذوني منه ، قالت : وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد رهط أبي سلمة وقالوا: « والله لا نترك ابنتنا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا » . فتجاذبوا سلمة الصغير بينهم حتى خلعوا يده ، وانطلق به بنو عبد الأسد . وحسبني بنو المغيرة عندهم . وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة . قالت : ففرق بيني وبين ابني وبين زوجي . وكانت أم سلمة تخرج كل غداة فتجلس في الأبطح ، فما تزال تبكي حتى تمسي . ومرت على هذا سنة أو قريباً منها ، حتى رق لها قلب رجل من بني عمها - أحد بني المغيرة - ورحمها ، وذهب إلى القوم قائلاً : « ألا تخرجون هذه المسكينة ؟ فرقم بينها وبين زوجها وبين ولدها » قالت : فقالوا لي : الحق بزوجك إن شئت . ورد بنو عبد الأسد إليها عند ذلك ابنها . وهاجرت أم سلمة مع ولدها إلى المدينة (١) .

وما تحفظه لنا كتب السيرة في هذا الموقف أن أم سلمة عندما خرجت بولدها مهاجرة إلى الله ورسوله ، وأدركت التنعم بظاهر مكة ، لقيت عثمان بن طلحة - أخا بني عبد الدار - وكان مشركاً فصحبها حتى أوفى على قباء قرب المدينة وقال لها: « هذا زوجك في هذه القرية » . ثم انصرف راجعاً إلى مكة . وتصف أم سلمة كيف أكرمها عثمان في هذه الصحبة ، وكيف حافظ على أكرم التقاليد العربية ، في رعاية سيدة مهاجرة ، من حياء ورعاية ، حتى كانت تقول : « ما رأيت صاحباً قط كان أكرم من عثمان بن أبي طلحة » .

من هذه النماذج تبدو لنا طبيعة الهجرة : هجرة إلى الله ورسوله ،

(١) ابن هشام : السيرة ٢ : ١١٢ - ١١٣ ط . الحلبي ، القاهرة .

ليس لها من دافع إلا الإيمان والامثال لأمر الله تعالى : والسعى لإيجاد قاعدة ، يستطيع فيها الإسلام أن يرفع أعلامه وينشر أنواره ويهدي الناس إلى الحق .

#### ٤ - تخطيط الهجرة

ولقد تعاون في الإعداد للهجرة والمشاركة فيها رجال ونساء وشباب وفتيات ، مسلمون وغير مسلمين ، فجاءت الهجرة صورة تطبيقية للإيمان ولشرف الكلمة يقولها غير المسلم فيلتزم بها :

● الذين ساهموا في الهجرة كان فيهم الكهول كالنبي عليه الصلاة والسلام وأبي بكر .

- والشباب كعلي بن أبي طالب وعبد الله بن أبي بكر ،
  - والفتيات كأسماء وعائشة ابنتي أبي بكر ،
  - والرعاة من القاعدة كعامر بن فهيرة راعي أبي بكر ،
  - وعبد الله بن أريقط وهو الدليل الذي صحب الراكب من غار ثور إلى المدينة ، ولم يكن على دين القوم .
- وإذا نظرنا إليهم اجتماعياً : وجدنا فيهم الغني والفقير ، والقرشي وغير القرشي ، يجمعهم جميعاً رباط الإيمان والكلمة الشريفة . وأي اهتزاز في أحد هؤلاء كان كفيلاً بفشل الحطة كلها .
- وكان على كل من هؤلاء عمل محدد يؤديه ، وتوقيت دقيق ينبغي أن يلتزمه :

كان على علي أن يبيت في فراش الرسول عليه الصلاة والسلام ، وعليه المهام التالية :

١ - وجوده في فراش الرسول سيجعل القوم يظنون أن الرسول ما زال راقداً فيه . فإذا ما أصبح الصباح ، أو جاء الفجر ، وهاجموا البيت فوجئوا بهذه الخطة . ولم يكن من المستبعد أن يستبد بهم انغضب فيعتدوا على علي . فالمهمة بهذا كانت لها خطورتها التي قد تصل إلى القتل .

٢ - كان عليه بعد هذا أن يقوم بعمل كرم في مكة ، في "بقت" الذي تحارب فيه الرسول والإسلام . عليه أن يرد الودائع التي كانت عند الرسول . ومكة كلها تعلم أن الصراع بينها وبين الإسلام لم يخرج عن إطار العقيدة أولاً . ولم يكن هذا الصراع ليُجعل أي فرد فيها يشك في أمانة الرسول ، مهما اشتدت عليه الضغوط . ولك أن تتصور الإيذاء الشديد الذي كان يقع على الرسول وأصحابه ، وأن أهل مكة أو الرأي العام فيها - إذا شئت اصطلاحاً حديثاً - كان موقفاً أشد اليقين - أن أخلاقيات الرسول وأدب الإسلام ، لا يمكن أن تتأثرا بهذا الضغط - وما كان أقساه - وأن ينعكس هذا الضغط على مصير الودائع . فكان كفار مكة يتعقبون الرسول ويحاولون اللحاق به ، وكان علي بن أبي طالب في أهل مكة يرد الودائع إلى أهلها !! ...

٣ - ثم كان عليه بعد هذا أن يلحق بالرسول عليه الصلاة والسلام في المدينة . ولم تكن عنده من راحلة ، فقطع هذه الصحارى المحرقة . فما وصل إلى قباء على أطراف المدينة الجنوبية إلا بعد أن تقرحت أقدامه وأرهقه الطريق الطويل .

● وكان علي عبد الله بن أبي بكر أن يبيت في مكة وسط قريش ، يسمع منهم ما يقولون . كانوا يعرفون صلته بالموقف كله ، ولكن عبد الله كان مستطعياً أن يقوم بهذه المهمة في هدوء وتعقل . ولو كان دخل مع القوم في صراع وحوار عنيف لظنوا به الظنون ، ولكنه - فما يبلى - لم يكن يظهر أي إثارة تدل على هذه الصلة ، كان يسمع القول في الرسول

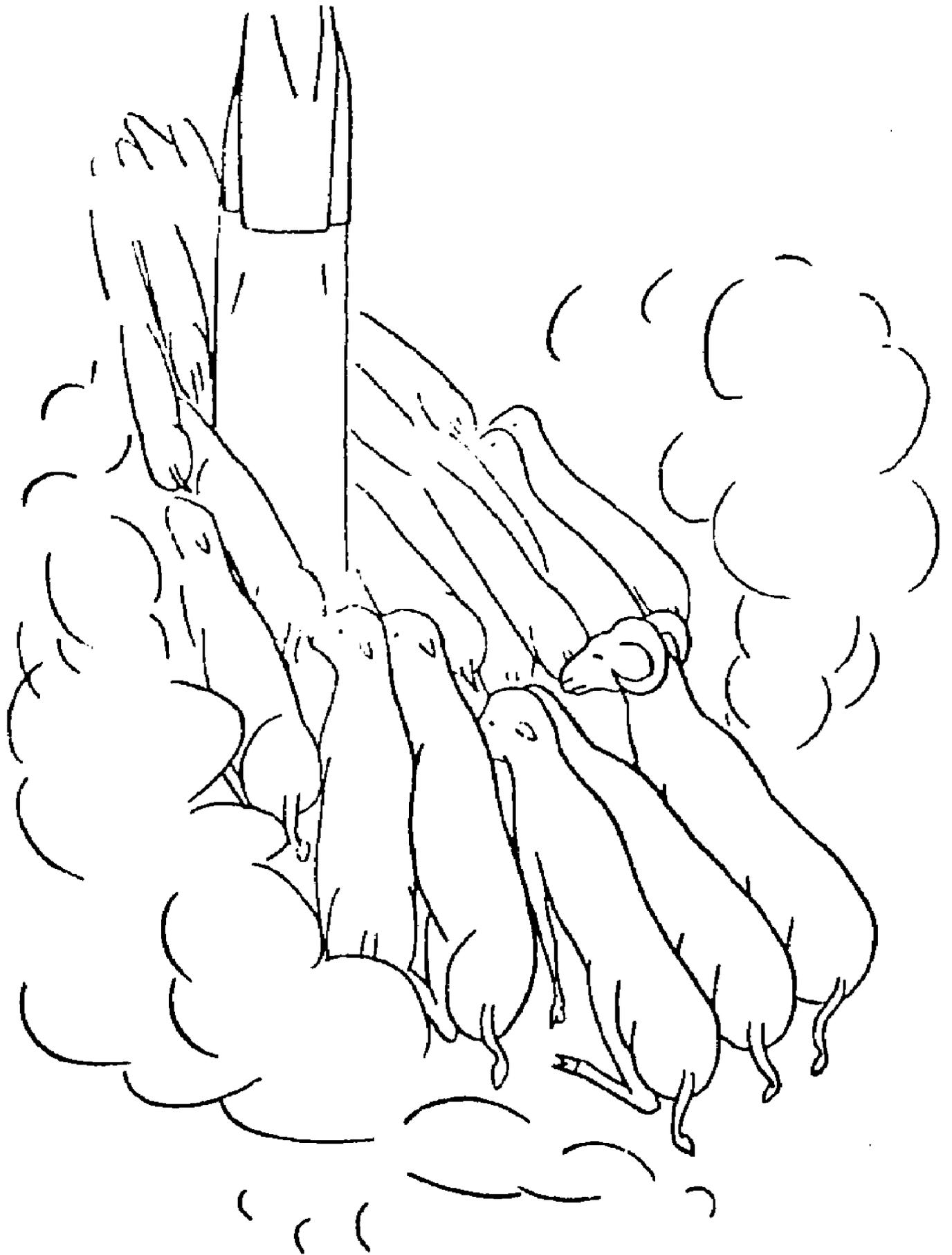
وأبي بكر ويجمع هذه الأخبار جميعها ، دون أن يبدو عليه أنه راغب في ذلك قاصداً له ، فإذا ما أتم مهمته سعى إلى الغار ، دون أن يبدو عليه ذلك . ولعله كان يسلك إليه طريقاً طويلاً ، ويرقب كل من حوله ؛ حتى إذا ما اطمأن سلك إلى الغار طريقاً ، ليقدّم إلى الرسول صورة كاملة لما حدث في مكة ، ليكون على بينه من الأمر . ويبت معهما في الغار ثم يقوم في السحر ليلحق بمكة كأنه بات فيها .

ولو كان عبد الله بن أبي بكر غير محتاط لأمره . لانكشف أمر الغار واستطاع كفار قريش أن يذهبوا إليه . والأمر عند عبد الله ، ليس فقط مجرد وصول إلى الغار ؛ دون أن يستطيع أحد أن يتبعه لو أراد ، ولكن كان عليه أن يصل في توقيت معين ، قبل الموعد الذي يصل فيه عامر بن فهيرة راعي أبي بكر .

● وكانت أسماء ، ومن ورائها بيت أبي بكر ، يقومون بإعداد الطعام للرسول وصاحبه ، على نفس المستوى من الحذر ، والمسئولية ، وكتمان الأمر في دقة لا تعرف الهاون .

● فإذا ما تم وصول الطعام والأخبار وترك السير أثره على الطريق . كان على عامر بن فهيرة أن يمر بأغنامه على ما ترك عبد الله وأخته من أثر ، ثم ينتهي إلى الغار ليأخذ الرسول وصاحبه ما هما في حاجة إليه من ألبانها .

● يبتي بعد هذا عندنا عبد الله بن أريقط ، والرواحل معه معدة ، تنتظر الإشارة ممن في الغار ليأخذوا طريقهم إلى المدينة .



## ٥ - التنظيم العلمى

فهنا نرى تنظيمًا دقيقًا للتموين والأخبار وعمليات التغطية، والاتصال المستمر بمكة، وفتح الطريق إلى المدينة، واتخاذ طريق نحو الجنوب الشرقى أول الأمر. بينما القوم يبحثون شمالاً وغرباً، والانتظار في الغار حتى يظن القوم أنه قد أفلح في اختراق الحصار الذى ضربوه، فإذا ما اطمأن إلى فشلهم فى كل ذلك، بدأ طريقه إلى الغرب عن طريق الساحل، غير سالك ما اعتادوه من دروب ثم يصل إلى منطقة الجبال بعد هذا، فى طريق وعر قليل سالكوه. فالتنظيم العلمى هنا دقيق لم يترك أى شىء لصدفة، وهو تنظيم بلغ من دقته أن القوم كانوا أقرب ما يكونون إلى الرسول وصاحبه فلم ينالوا منهما شيئاً.

ولنقف طويلاً عند قول أبى بكر: «لو نظر أحدهم إلى موضع قدميه لرآنا»، فكانه برغم ما ذكر فى كتب التاريخ من أمر العنكبوت والحمامة والغصن المتدلى. برغم كل هذا لو نظر أحد الكفار إلى موضع قدميه لرأى الرسول وصاحبه.

هل نظر القوم إلى غير ذلك فشغلوا بما رأوا من أمر العنكبوت والحمامة والغصن المتدلى؟

هل كان اليأس قد وصل إلى مكان قلوبهم فتعلقت أعينهم بما يرون، فشغلهم عن أن ينظروا إلى مواضع أقدامهم؟ نحن كثيراً ما نقف عند أثر العنكبوت والحمامة والغصن. ولكن هل لنا أن نقف طويلاً عند أمرين؟:

١- الاستعداد الدقيق والتنظيم العلمى الذى وضعه الرسول للهجرة، بحيث إن القوم عندما وصلوا إلى الغار لم ينظروا إلى مواضع أقدامهم.

٢ - أن تأييد الله مرتبط ببذل أقصى الجهد . وأن الخروج عن هذا يمكن أن يؤدي إلى عواقب خطيرة .

والنموذج عندنا واضح مما حدث للمسلمين في غزوة أحد ، وبعد هذا في الجولة الأولى من غزوة حنين عندما أعجبهم كثرتهم . في هذا الضوء نستطيع أن نقرأ قوله تبارك وتعالى :

« إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ ، إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ : لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا . فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ ، وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى . وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » [ التوبة : ٤٠ ]

## ٦ - هدفها

وإذا كانت هجرة الحبشة مجرد « إيواء » لمجموعة من الصحابة إلى حين ، فقد كانت الهجرة إلى المدينة كما رأينا « انطلاقة » لتكوين قاعدة جديدة . . . كانت هجرة للتكوين والتغيير . تغيير موطن لتستعيد مكة وتطهر البيت الحرام للطائفين والعاكفين والركع السجود . ولتنطلق من الجزيرة العربية باسم الله وعلى بركة الله ، تحمل راية تحرير الشعوب ، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتحل لهم الطيبات وتحرم عليهم الخبائث ، وتضع عن الناس إصرهم والأغلال التي كانت عليهم . كانت هجرة تغير بها وجه الحياة في المدينة أولاً . ثم الجزيرة العربية

ثانياً ، ومنها إلى مشارق الأرض ومغاربها ثالثاً . وأبرز ملامح هذا التغيير كانت :

١ - اقتصادياً : فقد استطاع المسلمون أن يحرروا أرض المدينة من أيدي يهود بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة . وعادت هذه الأرض إلى فقراء المسلمين ومن ساهموا في تحريرها، على أساس من احتياجاتهم الحقيقية . وأبطل الإسلام كل أنواع الاستغلال التي كانت موجودة في مجتمع المدينة . وفي هذا نقرأ قول الله تبارك وتعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَافَةً . وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ \* وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ \* وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ \* وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ \* الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ . وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ » [آل عمران ١٣٠-١٣٤] .

٢ - أخلاقياً : نرى التعبير القوي عن الإيمان، في مظاهر الحياة في قاعدة الإسلام، وفي ميادين القتال . ولنقرأ في هذا قول الله عن العلاقة بين المهاجرين والأنصار : « وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا ، وَيُؤْتُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ

خَصَاصَةً ، وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .  
[الحشر: ٩] .

٣- وسرياً : نرى تأصيل مبدأ الشورى والتلاحم الفكرى الدائم بين القيادة والقاعدة . وفي هذا نقراً قوله تعالى : « فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ » [آل عمران : ١٥٩] .

٤- عسكرياً : رفع قوة الجيش الإسلامى من نحو ثلاثمائة فى غزوة بدر فى العام الثانى للهجرة ، إلى ثلاثين ألفاً فى غزوة تبوك فى العام التاسع للهجرة . وارتفعت أقوى قوة ضاربة وقتل - وهى الفرسان - من اثنين فى غزوة بدر إلى عشرة آلاف فى غزوة تبوك .

٥- وفى المواصلات : بعد أن كان الإسلام محاصراً فى مكة ثم فى أوائل عهد المدينة ، استطاع أن يسيطر على طرق المواصلات العربية كلها ، ما بين الحجاز واليمن جنوباً وما وراءه فى أرض الحبشة ، والشام ومصر فى الشمال الغربى وأرض فارس فى الشمال الشرقى .

٦- وفى وضع العلم فى خدمة الإعداد الحربى : أرسل الرسول البعثات التى احتاج إليها الجيش . ففى طبقات ابن سعد عند الكلام على وفد ثقيف ، ذكر أن عروة بن مسعود وغيلان بن سلمة لم يحضرا حصار الطائف لأنها كانا بجرش يتعلمان صنعة العرادات والمجانيق

والدبابات ( هي أسلحة حربية ) . وجرش بند بالأردن وعلى نفس الاسم مكان بائين (١) .

وبعد : فهذه هي بعض مظاهر التغيير التي حدثت في مجتمع المدينة بعد الهجرة . في مجالات الحياة ، على أساس من الإيمان والعلم والتنظيم والتفاعلية التي استطاعت أن تحقق هذه الثمار .

ولعل أصدق احتفال بالهجرة أن نأخذ منها دروساً ، وأن نحول هذه الدروس إلى حياة نابضة ، نائمة دائماً على كل أنواع الاستغلال . عاملة على أساس علمي لتغيير المجتمع إلى صورة أفضل . ولنقرأ في هذا قول الله تعالى :

« إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِيَدِهِ مَا يَشَاءُ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ »

[الرعد : ١١]

(١) انظر : التراتيب الإدارية للكتاني ١ : ٣٧٥ - طبع الرباط